

المحاضرة الرابعة: أشكال التعبير في الأدب الشعبي المغربي.

تمهيد:

يحتوي الأدب الشعبي المغربي على عناصر وأنواع كثيرة، تختلف فيما بينها لا من حيث البنية والأسلوب الفني والطول والحجم والتفاصيل، فإذا أخذنا معياري الطول أو الحجم والتفاصيل على سبيل المثال لوجدنا الأدب الشعبي المغربي شبيه بالهرم المقلوب الذي يتسع عند القمة ليضيق عند القاعدة، ويتربع على قمة الهرم السير والملاحم والأساطير الشعبية والقصص والحكايات، وذلك لطول الفترة الزمنية التي تتطلبها عملية السرد، ولكثرة التفاصيل التي تتضمنها، بالإضافة إلى تعقيد البنية الفنية وتنوعها، ويضيق بعد ذلك الهرم رويدا رويدا ليشمل الأغاني والأشعار الشعبية، ثم يستمر في الضيق حتى نجد في النهاية النوادر والألغاز والأمثال الشعبية، التي تنصف بالإيجاز والاختصار الشديد وتكثيف المعنى في كلمات معدودة.

وسوف يكون التركيز في هذه المحاضرة منصبا على أكثر الأنواع الأدبية الشعبية المغربية شيوعا وتميزا من حيث المفهوم العلمي ومن حيث الاستخدام والعناصر، على أن نعود لها في المحاضرات اللاحقة وتناولها نوعا نوعا بدقة أكثر، وهذه الأشكال هي:

1 - الأسطورة.

2 - السيرة الشعبية.

3 - القصة أو الحكاية الشعبية.

4 - النادرة الشعبية.

5 - الأغنية الشعبية.

6 - اللغز الشعبي.

7 - المثل الشعبي.

1 - الأسطورة:

ويطلق عليها في اللغة الفرنسية "Mythe"، وهي في رأي بيير سميث "P. Smith" تختلف عن الأجناس السردية، كونها ليست إلا نوعا من قصة نموذجها حددته تواريخ الآلهة في الميثولوجيا الإغريقية الموغلة في القدم، وعلى الرغم من أن كثيرا من الأساطير ليست تواريخ أديان فهي على كل حال تواريخ أبطال، لكنها تتميز بصفات الحكاية الشعبية المستوحاة من التاريخ⁽¹⁾، فالتاريخ عنصر مهيم في الأسطورة حتى وإن كانت أقرب من الحقيقة إلى الخرافة، وأبسط مفهوم للأسطورة: إنها الحكاية التي تحتوي مزيجا من مبتدعات الخيال والتقاليد الشعبية، التي تهدف إلى إجلال حقيقة الحياة أو تغيير ثوابت الواقع وتحريكها، وإعطاء تفسير ميثافيزيقي لظاهرة أو عادة ما،

¹ - ينظر: عبد الملك مرتاض، الميثولوجيا عند العرب؛ دراسة لمجموعة من الأساطير والمعتقدات العربية القديمة، الدار التونسية للنشر، تونس، دت، ص 13.

أما المفهوم الأكثر اتفاقاً بين أهل الاختصاص، فيرى أن الأسطورة مأثور شعبي يحمل بالطبع وبالضرورة سمات العصور الأولى القديمة، مفسرة معتقدات الناس إزاء القوى العليا كالألهة وأنصاف الآلهة⁽¹⁾.

وحسبنا أن أهم ما يميز الحدث الأسطوري عن الحدث السردى العام الذي نصادفه في الأجناس الأدبية السردية الأخرى، هو التهويل وطلب الخوارق، والتغريب ونشيدان العجائب، فالأسطورة لم تكن أسطورة إلا بفضل هذه الخصائص، التي تجمع بين المقدس الذي يفترض أن يكون حتمياً مسلماً به، وبين الخرافي الذي يخرج عن الطبيعة والقداسة والحتمية.

تؤدي الأسطورة العديد من الوظائف الاجتماعية والثقافية في المجتمع، كما أنها تؤدي دوراً مهماً في تحقيق التوازن النفسي لمن يؤمنون بها، فهي تظهر في مواقف المحن والشدائد والمشكلات المتكررة الوقوع في البيئة الاجتماعية أو الطبيعية، وترتبط ارتباطاً قوياً بتدابير الضبط الاجتماعي في المجتمع، إذ أنها تتضمن مبادئ وقواعد السلوك المقبول في ذلك المجتمع، بالإضافة إلى ذلك فهي تعد وسيلة مهمة في التثقيف والتعليم، حيث يتعلم الناس تاريخ مجتمعاتهم وقيمهم والأنماط السلوكية المقبولة والأنماط الأخرى غير المقبولة، ولذلك ارتبطت بثقافة المجتمع، حيث ينظر إليها على أنها الأصل المباشر لكل ثقافة قديمة، ولقد تميزت الكثير من الشعوب والمجتمعات القديمة بوجود أساطير خاصة بها، ومن بينها شعوب المنطقة المغاربية، ونتيجة المحتوى الديني أو المقدس في الأساطير فقد جاءت الأديان السماوية لتعطلها وتهدمها⁽²⁾، ولكن بالرغم من اختفاء الكثير من الأساطير إلا أن البعض من أجزائها وعناصرها متشظية في الحكايات الخرافية، ومن الأمثلة على الأساطير المغاربية القديمة: أسطورة "إنزار" التي تتحدث عن اله المطر لدى الجماعة الشعبية الأمازيغية.

2 - السيرة الشعبية:

لقد عرف الأدب الشعبي المغاربي فن السيرة الشعبية، ذلك الفن الذي تمتاز فيه مجموعة من الفنون المختلفة كالموسيقى والغناء والتمثيل، هذا الفن الذي تناقلته الجماعة الشعبية العربية المغاربية عبر العصور حتى وصل إلينا بعد رحلة غير يسيرة، في قلب المجتمع العربي في ريفه وفي حضره⁽³⁾، ويقصد بالسيرة الشعبية ذلك القصص الشعبي الذي ينمو ويعيش بدافع اللاشعور الجمعي، ويرتبط بتواريخ ووقائع وأحداث عن شخص أو قبيلة، تغلب عليها المبالغات والخوارق التي تضيفها عليها الخيلة الشعبية، مما يدرجها في عوالم العجائبية المحضة.

ويرى بعض الدارسين أن السير الشعبية بقصصها وحكاياتها هي في معظمها ردود على مشكلات نفسية واجتماعية متقاربة المضمون والهدف، تؤدي وظائف اجتماعية وتربوية... بل تؤدي أدواراً وطنية وسياسية ونضالية حينما يكون الشعب في مرحلة ضعف وركود، أو حينما يقع تحت نيران احتلال خارجي⁽⁴⁾، وهي

¹ - أحمد علي غزوان، الأسطورة بين الدين والفكر والشعر المعاصر، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ع 368، يناير 2001، ص 29.

² - نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، ص 22.

³ - يسري عبد الغاني عبد الله، بين السيرة الشعبية والقصص الشعبية، مجلة الجوبة، مؤسسة عبد الرحمن السديري الخيرية، المملكة العربية السعودية، ع 24، 2009، ص 36.

⁴ - إبراهيم صحراوي، السرد العربي القديم؛ الأنواع الوظائف البنيات، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2008، ص 83، 84.

تحرص على الهدف التاريخي في المقام الغول ولا تتحول عنه حتى تصل إلى نهايتها، وأبطالها يتحولون إلى أبطال قوميين، أو بمعنى آخر يتحولون إلى نماذج ورموز بطولية، يضرب بها المثل ويقتدى بها في الشجاعة والبسالة والإقدام⁽¹⁾.

لقد نشأت السيرة الشعبية العربية في ظروف صعبة، وعاشت حياة أكثر صعوبة، لارتباطها بحياة الناس وتاريخهم وحضارتهم وامتداداتهم الاجتماعية والثقافية، لذلك وجدناها تنطلق من شخصية بطلنة نافذة في وجدان المجتمع العربي، بأخلاقها النبيلة وبفروسياتها وبطولتها وغيرها من المزايا والصفات التي تحرص السيرة الشعبية على نقلها وغرسها في نفوس متلقيها.

ويوجد في الأدب الشعبي العربي ست سير شعبية هي: سيرة عنتر بن شداد، سيرة سيف بن ذي يزن، سيرة الظاهر بيبرس، السيرة الهلالية، سيرة الأميرة ذات الهمة، وسيرة حمزة البهلوان، وكل سيرة من هذه السير تدور أحداثها حول بطولات الجماعة الشعبية العربية عبر محطات تاريخية مختلفة، بالإضافة إلى موضوعات اجتماعية وأخلاقية وسياسية مختلفة، ولكنها تشترك في كونها تعبر عن البيئة الاجتماعية والقيم الأخلاقية التي تأصلت وترعرعت عليها الجماعة الشعبية العربية.

3 - القصة أو الحكاية الشعبية:

الحكاية الشعبية تعبير موضوعي واقعي غير منقطع عن الزمان والمكان؛ إذ تجري في واقع تاريخي فعلي وبطابع جدي، وتحدد أهم عناصرها التجنيسية الخاصة بها في الوعي بمفارقات الحياة الواقعية والارتباط بها، وإعادة تشخيص المواقف التي حدثت فيها، من أجل المعرفة وكشف الحقائق المجهولة وغرابة الواقع الحسي المعروف، ونقد سلبيات المجتمع بهدف إصلاحه، والاضطلاع بوظيفة تعليمية ترسخ القيم الأصلية بين الجماعات الشعبية وتدافع عنها، ومن هنا يؤخذ هذا النوع من القصص مأخذ الحقيقة والجد، علماً بأنه يتميز ببساطة البناء ومحدودية الوحدات الوظيفية⁽²⁾.

والحكاية الشعبية وصف لواقعة خيالية أو شبه واقعية أو حقيقية، أبدعها الشعب في ظروف حياته المختلفة، وسجلها في ذاكرته ورواها أفرادهم لبعضهم البعض بمرور الأيام، وتوارثوها فيما بينهم مشافهة من أجل المتعة والتسلية⁽³⁾، وبهذا الهدف تختلف عن الأسطورة المرتبطة بالبعد العقائدي.

تأخذ الحكاية الشعبية في إبداعها لغة من اليسر والبساطة والسهولة، ما يجعلها محببة إلى النفوس، فتتألف معها تآلفاً عجيباً فيه الكثير من الحب والسحر والدهشة، لاقتربها من فطرة الإنسان وشخصيته الواقعية والعفوية. أما الحكاية الخرافية، فهي نوع آخر مختلف عن الحكاية الشعبية، وهي ذات مكونات تجنيسية مميزة لها، تتحدد في قصرها المطرد، وفي بساطة بنائها المهيكل على أساسين اثنين؛ تعرض في الغول الحادثة المجسدة للمغزى،

¹ - يسري عبد الغاني عبد الله، بين السيرة الشعبية والقصص الشعبية، ص 38.

² - علي أحمد العبيدي، الحكاية الشعبية الموصلية بين وحدة التجنيس وتعدد الأنماط، مجلة دراسات موصلية، العراق، ع 26، 2006، ص 75.

³ - محمد سعدي، الأدب الشعبي بين النظرية والتطبيق، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1998، ص 58.

ويركز الآخر على الموقف الأخلاقي المباشر، كما أن أبطالها غالبا ما يكونون بلا أسماء، وعددهم قليل، وهم إما من الحيوانات أو النباتات أو الجماد أو الظواهر الطبيعية، فالأبطال يتصفون فيها بإسقاط الخصائص والصفات البشرية عليهم مع الاحتفاظ بالسماط الطبيعية الأصيلة⁽¹⁾، وتختلف الحكاية الخرافية عن الحكاية الشعبية أيضا في احتواء الأولى على عنصر الخيال والخيال التي تتحكم في مسار البطل، بينما نجد في الأخرى تحكم الواقعية وتناقضات المجتمع⁽²⁾، فهي تقوم على تعرية الواقع وتحليله لبلوغ أبعاد تلك التناقضات، كما يعود زمن بداية الحكاية الخرافية إلى مرحلة جد متقدمة في تاريخ العلاقة الغامضة بين الإنسان والكون، حيث يصعب تحديد البداية لغياب المعطيات والدوال التي يمكن الاستناد عليها⁽³⁾.

4 - النادرة الشعبية:

النادرة عبارة عن قصة شعبية قصيرة جدا، تروى بهدف إثارة الضحك وإدخال السرور على المتلقين لهل، وهي تعبر عن مزاج الجماعة الشعبية المغاربية، كما أنها لا تخلو من النقد الاجتماعي، وتعتبر نوادر حقا من أكثر النوادر الشعبية انتشارا وشيوعا في الأدب الشعبي المغاربي.

5 - الأغنية الشعبية:

الأغنية الشعبية أحد الأركان الجوهرية في الأدب الشعبي المغاربي، وهي عبارة عن تأليف قصير، يعتمد على الشعر الغنائي الملحن⁽⁴⁾، وتجمع الأغنية الشعبية في وحدة واحدة الكلمات الشعرية بالإضافة إلى اللحن، سواء أكان مصحوبا بالآلات الموسيقية أم بدونها اعتمادا على اللحن الجماعي، وهذا النوع من الأغاني يعد أقدم الأنواع؛ إذ انه سابق على الشعر الذي تحرر تدريجيا من الموسيقى واللحن، إن موسيقى الغناء سبقت موسيقى الآلات بآلاف السنين⁽⁵⁾.

تصبح إذن الأغنية الشعبية مصدرا للموسيقى؛ إذ يعتمد الغناء على الإيقاع والفواصل الموسيقية، التي هي من أهم أركان الموسيقى، وترتبط أيضا بالحركة والفعل خاصة أغاني العمل وأغاني الأفراح والمناسبات الاجتماعية كالأفراح والأعراس... الخ، ولذلك فإنها تعد من البدايات الأولية للأعمال المسرحية والطقسية، لكن الإيقاع والحركة أو الفعل ليست شروطا أساسية في ظهور الأغنية الشعبية؛ إذ توجد بعض الأغاني الشعبية غير مرتبطة بأعمال إيقاعية معينة مثل الأغاني المصاحبة لصناعة النسيج أو هدهدة الأطفال الصغار مثلا.

والأغنية الشعبية مثل سائر أنواع الأدب الشعبي أغلبها مجهولة المؤلف، فهي نتاج الجماعة الشعبية، وتداول بين أفرادها، والذي يجعل تداولها سريعا واحتواؤها على عناصر بسيطة منغمة وملحنة، وهي تعتمد على الأداء

¹ - علي أحمد العبيدي، الحكاية الشعبية الموصلية بين وحدة التجنيس وتعدد الأنماط، ص 75.

² - محمد سعدي، الأدب الشعبي بين النظرية والتطبيق، ص 59، 60.

³ - عبد الله إبراهيم، السردية العربية؛ بحث في الموروث الحكائي العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 2000، ص 85.

⁴ - السيد حافظ الأسود، الصبر في التراث الشعبي المصري، دراسة أنثروبولوجية، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1990، ص 135.

⁵ - المرجع نفسه، ص 145.

الشفاهي، وتسجل الأنماط المعيشية والاقتصادية لأفراد المجتمع وتعكس قيمه وعاداته والأفكار السائدة فيه، كما أنها تكشف عن الجوانب الوجدانية والعاطفية المقبولة في ذلك المجتمع.

6 - اللغز الشعبي:

اللغز عبارة عن سؤال محير يلقى السائل على فرد معين أو مجموعة من الأفراد بغرض الحصول على إجابة صحيحة، ويأخذ أشكالاً متنوعة، فقد يكون في جملة أو سؤال يحتوي على كلمات متناقضة أو تحمل أكثر من معنى، وقد يكون في شكل مسألة حسابية، وغالبا ما تكون الإجابة عنها مختلفة عما يتوقعه الشخص المسؤول، ولذلك عليه أن يفكر في إجابات أخرى ليست مباشرة، وتطلب الإجابة على الألغاز سرعة البديهة والتفكير والانتباه الشديد حتى يمكن إدراك المعاني وراء الكلمات أو العبارات، كما تتطلب الخيال الخصب.

والألغاز نوع من أنواع الأدب الشعبي المغربي، تتوفر فيها عدة مقومات، وهي: جودة الصياغة، والسجع والتشبيه، والسؤال المطلوب الإجابة عليه، فهي ليست مجرد سؤال تقليدي وإلا انتفت عنها خاصية انتمائها للأدب.

7 - المثل الشعبي:

يعد المثل الشعبي أكثر الأنواع الأدبية الشعبية المغربية انتشارا وشيوعا بين الأفراد، ذلك لأنه يرتبط بالكلام العادي الذي يستخدمه أفراد الجماعة الشعبية المغربية في حياتهم اليومية، كما يتميز أيضا بالإيجاز أو القصر بحيث يمكن حفظه وترديده، ويقول العسكري في "جمهرة الأمثال": ((أصل المثل من التماثل بين الشئين في الكلام كقولهم: كما تدين تدان، وهو من قولك هذا الشئ ومثله، كما تقول شبيهه، ثم جعل كل حكمة سائرة مثلا، وقد يأتي القائل بما يحسن من الكلام أنه يمثل به إلا أنه لا يتفق أن يسير فلا يكون مثلا، وضرب المثل جعله يسير في البلاد، من قولك: ضرب في الأرض إذا سار فيها))⁽¹⁾.

فالمثل الشعبي إذن، قول مختصر جامع للكلم، يستخدم بصورة شائعة، ويعتمد على التشبيه والمجاز، كما قد يكون حكمة صاغها فرد أو مؤلف، ولكن سرعان ما يغفل أو يهمل المبدع ويصبح في طي النسيان، بينما ينتشر المثل ويتداوله أفراد الجماعة الشعبية، ويتحول بالتالي إلى مثل سائر.

كما يتميز المثل بخاصة أخرى لا تقل أهمية وهي التعبير عن معنى واحد أو مضمون بعينه بأكثر من مثل شعبي، سواء داخل المجتمع الواحد أو بين المجتمعات التي تتفق في الثقافة أو الدين، وهو يعكس البيئة الطبيعية والاجتماعية والأنماط الاقتصادية السائدة في المجتمع المغربي، ليعبر عن الاستحسان والاستهجان طبقا لما يراه المجتمع مقبولا أو غير مقبول، فالأمثال تقدم نماذج للحياة وتعتبر مخزونا معرفيا هائلا، يجمع خلاصة تجارب الشعب وحكمته وفلسفته وتقييمه للأشياء والأمور.

خاتمة:

وفي الختام يمكننا القول أن مختلف أشكال التعبير في الأدب الشعبي المغربي تشكلت في تراثا ضمن الهوية العربية - الأمازيغية، وعكست جوانبا مهمة من الحياة الاجتماعية والدينية والفكرية القديمة، بسلوياتها وطقوسها ومعتقداتها، بإيجابياتها وسلبياتها وتناقضاتها المختلفة، والاهم من ذلك بعفويتها وسذاجتها، فعرفنا بعض

¹ - أبو هلال حسن بن سهل العسكري، جمهرة الأمثال، طبعة الميرزا محمد ملك، الكتاب الشرازي، دت، ص 32.

معتقداتهم من خلال الأساطير، وبطولاتهم وحروبهم من خلال السير الشعبية، وتأملاتهم وتجاربهم ودروسهم من خلال الحكايات والأمثال الشعبية، وعواطفهم ومزاحهم من خلال الأغاني والنوادر الشعبية.